المـــــــدح :

المدح : الثناء على إنسان بذكر أفضاله وتعداد مناقبه وخلاله الكريمة وخصاله العظيمة وإظهار آلائه وإشاعة محامده وفعاله النبيلة بين الناس بغية تمثلها والاقتداء بها.

- **دوافعـه :**

١.الإعجاب : ويتمثل هذا الدافع بإعجاب الشاعر بحسن صنيع إنسان ما ، أو بسمو أخلاقه ورفعتها أو لعظم مواقفه المشرفة في حل النزعات بين القبائل وردم الهوة بينها كإعجاب الشاعر زهير بن أبي سلمى بالحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذين أصلحا بين عبس وذبيان وحقنا دماء غطفان فكانا في هذا الموقف المشرف جديرين بالإعجاب ثم المدح وفي ذلك يقول :

يمينا لنعم السيدان وجُدتمـــــا ... على كل حال من سحيلٍ ومبـــرمِ
تداركتما عبساً وذبيان بعدمـــــا ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشـــمِ
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعـا ... بمال ومعروف من القول نسلـــمِ
فأصبحتما منها على خير موطـن ... بعيدين فيها من عقوق ومأتـــمِ
عظيمين في عليا معدّ هديتمـــــا ... ومن يستَبحْ كنزاً من المجد يعظمِ

وكإعجاب امرئ القيس ببني تَيمْ لأنهما أحسنوا اليه وأجاروه حين جدّ في ملاحقته وطلبه المنذر بن ماء السماء وفي ذلك يقول :

أقر حشا امرئ القيس بن حجر ... بنو تيمْ مصابيح الظلامِ

فكانت العرب تسمي بني تيم (مصابيح الظلام) لهذا البيت .

٢.التكسب : لجأ بعض الشعراء في أواخر العصر الجاهلي الى اتخاذ المدح وسيله للتكسب اذ لا يبعث على نظمه إعجاب أو حب لمن يمدحون بل يدفعهم الى ذلك حب المال والرغبة في العطايا والهبات اذ تكثروا من المديح وبالغوا في الزلفى وانقطعوا الى الرؤساء والأمراء والملوك يثيرون فيهم كامن الغرور ويوقظون هاجع الكبرياء والعظمة بما يضفون عليهم من صفات ويسبغون من نعوت ويعد النابغة والأعشى والحطيئة أبرز الشعراء الذين اتجهوا بالمدح هذه الوجهة التكسبية . يقول النابغة في مدح النعمان بن المنذر

ألم ترَ أن الله أعطاك ســـورة ... ترى كل ملك دونهـــا يتذبـذبُ
بأنك شمس والملوك كواكـــب ... إذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكـبُ

ويقول الحطيئة في مدح آل شماس :

فإن الشقي من تعادي صدورهـــــم ... وذوِ الجدّ من لانوا اليه ومـــن ودّوا
يسوسون أحلاماً بعيداً أناتهـــــا ... وان غضبوا جاءَ الحفيظة والجـــــدُ
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنـــى ... وإن عاهدوا أوفوا وإنْ عقدوا شـــدّوا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهـــم وبنى الجـــــدَّ

معانيـــــــه :

تدور معاني المدح في الشعر الجاهلي حول جملة من القيم والمثل والفضائل الإنسانية الرفيعة التي يعتز بها الإنسان العربي الجاهلي فراح يتمثلها في ذاته حينا كما هو الحال في شعر الفخر وفي من يحب كما هو الحال في شعر الرثاء وفي ممدوحة كما هو الحال في شعر المدح وأهم هذه القيم والمثل :

- **الكرم** : لعلّ ابرز خصلة يعتز بها العربي ويتميز بها عن غيره هي الكرم فهو احد الأسس الخلقية التي تمثل صورة الإنسان عند العرب لذلك فقد أحبّ العربي هذه الفضيلة وحضوا على التخلق بها وتعد قيمة الكرم قيمة أصيلة في نفس الإنسان العربي وسجية تنبع من ذاته ومما يؤكد أصالتها هو صدورها منه على الرغم من قلة ذات يده ، كذلك فإن الكرم يمثل في حياة البدوي قيمة وجودية أيضاً وظيفتها الحفاظ على النوع الإنساني فالإنسان الجاهلي إذا لم يكرم ضيفه فمعنى ذلك أنه يدعه يواجه مصيره المحتوم وهو الموت في هذه الصحراء المهلكة وهو مصير سيواجهه هو أيضا ، من هنا فان المحافظة والالتزام بفكرة الكرم والضيافة هي ادخار معنوي قيمي يدرأ عن الذات غوائل الجوع والضياع اللذين سيكونان المصير المحتوم في ما لو اختفت قيمة الكرم والضيافة من الثقافة الصحراوية ، لهذا نجد أن الشاعر الجاهلي يؤكد على هذه القيمة ويلتزم بها ويحاول تثبيتها في واقعه كأساس مرجعي للوجود ، هذا وللكرم صور متعددة في شعر المدح الجاهلي نقتطف منها هذه الصورة التي يصور فيها الأعشى شغف ممدوحة (هوذة) بالكرم شغف الضمآن بالشراب البارد فقال:

يرى البخل مراً والعطاء كأنما يلذّ به عذباً من الماء بارداً

ولا يكتفي الأعشى بذلك بل يجعل داره مقصد الأرامل ومحجة الأيتام :

غيث الأرامل والأيتام كلهمِ لم تطلع الشمس إلاّ ضرّ أو نفعا

وهذه صورة أخرى يطالعنا بها زهير وهو يشق السبل دون إقدام السابلة ويسير بهم قوافل اثر قوافل الى دار هرم :

قد جعل المبتغون الخير من هرمٍ والسائلون الى أبوابه طرقا

وشأن اللائذين بهرم كشأن الطائفين بدار (قيس)ممدوح الأعشى كلا الفريقين الى رزقه قاصد وحول محجته طوّاف

يقول الأعشى :

يطوف العفاة بأبوابه كطوف النصارى ببيت الوثنْ

- **الشجاعة** : تعد الشجاعة قيمة وجودية وجوهرية أيضا في حياة الإنسان الجاهلي لأنها تمثل الوسيلة الناجعة في مواجهة التحديات الخطيرة التي فرضتها عليه بيئته وعلاقاته مع الآخرين التي غالبا ما تخضع لقانون الصراع الذي هو جوهر الحياة في الصحراء تلك التحديات التي تهدد كيانه ووجوده مما أضطره الى التسلح بها لمواجهتها ومن ثم التغلب عليها الأمر الذي يعني إثبات وجوده فالضعف في نظر الإنسان الجاهلي موت والقوة تعني الحياة والوجود من هنا نراه يمجد القوة ويتخذها وسيلة مشروعة ليس للدفاع عن ذاته ووجوده وحسب بل للدفاع أيضا عن الجماعة التي ينتمي اليها ووجودها أمام التحديات الخطيرة التي تسلبه حياته ووجوده : فكما أن للكرم صورا متعددة فللشجاعة صور متعددة أيضاً في الشعر الجاهلي نكتفي بهذه الصور التي يصور فيها زهير شجاعة قوم هرم بن سنان وسرعتهم الى نصرة المستنصرين وانطلاق خيلهم الى نجدة المستغيثين وهم على صهواتها بدروعهم السابغه ونفوسهم التائقة الى الموت وعزائمهم الجديرة بالمجد ، يقول زهير :

إذا فزعوا طار والى مستغيثهم طوال الرماح لاضعاف ولاعــزلُ
وان يقتلوا فيشتفى بدمائهـــم وكانوا قديماً من مناياهم القتـــلُ

بخُيِل عليها جِنة عبقريـــــــة جديرون يوماً ان ينالوا فيستحلوا
عليها اسود ضاريات لبوسهـم سوابغ بيض لاتخرّقها النبـــل

- **خصائصـــــــــه :**

١ـ إنه يعنى بنقل الأحداث التأريخية ، وسرد أيام العرب وتسجيل العلاقات التي كانت قائمة بينهم وبين جيرانهم من روم وفرس وأحباش ، وتصويره حياة العرب اليومية ومفاهيمهم في الحكم ، ومثلهم العليا .

٢ـ إن شعر المدح يميل الى تصوير خصال الممدوح كما هي في الواقع ، إذ أن اغلب الشعراء يؤثرون الإنصاف على الإسراف ، والواقع على الخيال ، فهم يعرضون أفكارهم بصور معقولة لا يجنح فيها الخيال ولا يحلّق بل يستمد مادته من بيئة الشاعر بمعنى ان الشعراء الجاهليين في المدح لا يميلون الى المبالغة والإغراق في إضفاء القيم والمثل الإنسانية العليا على ممدوحيهم كما نجده واضحا في شعر العصور التي تلت العصر الجاهلي لاسيما الشعر العباسي .

٣ـ صياغة المثل الأعلى : إن الشاعر الجاهلي يصور ممدوحه على انه كتلة من القيم والمثل والفضائل الإنسانية الرفيعة وبذلك يتصور المثل الأعلى للرجل الذي تقتضيه المفاهيم الاجتماعية في ذلك العصر وكأنه بهذا الصنيع يسعى الى غاية حددها تصور الناس للفضيلة والرجولة ويعبر عنها الجانب الاجتماعي في المدح وعن الوظيفة الإصلاحية التي يضطلع بها وعن الرسالة الخلقية التي يبشر بها وفي ضوء هذا النضر يكون شعر المديح محاولة ترمي الى سيادة الصورة الأخلاقية الرفيعة للرجل في المجتمع الجاهلي وذلك عبر رسم اللوحة السامية التي يطمح الشاعر الى تحقيقها على ارض الواقع وان محاولة الشعراء تأكيد هذه الصورة الأخلاقية الرفيعة المتمثلة في صورة الرجل المثال من خلال الأوصاف المثالية التي أضفوها تعني بكل وضوح الدعوة الصريحة لكل الناس الذين يستمعون اليهم للالتزام بهذه الصفات والحرص على نشرها والتمثل بها والتحلي بما تمليه عليهم من خصائص .

٤ـ ومن خصائص المدح **مزجه بالقصة التاريخية** : اذ لا تستغرق عادة أكثر من أبيات قليلة وهي تضفي على الشعر الغنائي مسحة ملحمية ، وتبعث في أفكاره المجردة حيوية وديناميةبما تبث فيها من أحداث وتفسر حاضر الإنسان بماضي غيره . والغرض من مزج شعر المديح بالقصص التاريخي هو الاعتبار والتأسي بالأمم السالفة ، وقد كان النابغة الذبياني أبرع الشعراء الجاهليين في تسخير القصة لهذا الغرض ، وفي عرضها بأسلوب فني رائق . ومدائحه زاخرة بأخبار الأولين كقصة سليمان الذي سخر الله له الجن ، وحكّمه في الناس ، وأمره بمعاقبة العاصي ، وإنصاف المظلوم ، وما النعمان إلا سليمان أخر سخره الله لهداية الناس ، وردّهم عن الانحراف والزّيْغ ، يقول النابغة في مدح النعمان بن المنذر في معرض اعتذاره له في معلقته :

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهـهُ ولا أُحاشي من الاقوامِ من أحدِ
إلا سليمـــــــان إذ قال الاله ُ له قمْ في البّرية فاحُدْدها عن الفنــد